حول كتاب «القوافي» لسيبويه

حنا جميل حداد(*)

إضـــاءة:

وهل كان لسيبويه كتاب آخر غير كتابه المعروف..؟!

هكذا تساءلت بدهشة بعد أن قرأت ما جاء في خزانة الأدب للبغدادي[1]:

(وقال أبو الفتح بن جني هكذا أنشده أبو الحسن وهو بعيد لأن حكم الحروف المختلفة في الروي أن يتقارب مخرجها كما أنشد سيبويه في كتاب القوافي).

فأخذت على نفسي مهمة التحري والتحقيق للكشف عن صحة هذه المقولة التي أطلقها البغدادي وهو المشهور عندنا بالصدق في القول والدقة فيما ينقل أو يحيل إليه، فكانت هذه الدراسة.

****

وأقول بداءة: إنني من المهتمين بسيبويه وكتابه منذ أكثر من ثلاثة عقود، ولي في الكتاب وصاحبه غيرُ بحث ودراسة. كما أن لي في نسخة الكتاب

(*) أكاديمي وباحث أردني.

المتداولة اليوم بين أيدينا رأي مُعْلن[2]، وقد قرأت عن الرجل وكتابه العشرات من الكتب والبحوث والدراسات فما وجدت في واحد منها إشارة ولو عابرة عن كتاب القوافي هذا أو ذكراً له. فما الأمر؟ وما حقيقة هذا الكتاب؟

نؤكد ثانية أن الذين ترجموا لسيبويه أو عرفوا به بدءاً من البدايات الأولى لحركة التأليف اللغوي والتعريف بأعلامها وعلى امتداد خمسة قرون لاحقة لم يذكر أيٌّ واحد منهم اسم هذا الكتاب فيما تحدث به عن سيبويه أو ساق من أخباره، ولم يأتِ على ذكر له أو نقل جزءٍ منه. وأن الذين اشتهروا بالحديث عن علماء العربية ورصد مؤلفاتهم وذكر آثارهم الفكرية كابن النديم في الفهرست وحاجي خليفة في كشف الظنون ومن سار على دربهما ككارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي وفؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي وغيرهم، لم يأتوا على ذكرٍ لكتاب باسم «القوافي» لسيبويه أو يذكروا بأي شكل من التحفظ نسبته إليه.

وقد أظهر البحث والتحري أن أقدم إشارة لوجود هذا الكتاب والنقل عنه ترجع إلى القرن الثامن الهجري وذلك عند الأمام أبي أسحق إبراهيم ابن موسى الشاطبي المتوفى سنة 790هـ في كتابه «المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية» حيث قال[3]: «..... **وقد زعم بعضهم أنها كالهاء لا تقع روياً إلا حيث تقع الهاء روياً. وذلك ينكسر بما أنشده سيبويه في كتاب القوافي له من قول الراجز..... إلخ**». وهو قول للأمام الشاطبي يدل على أنه رأى كتاب القوافي لسيبويه واطلع على ما جاء فيه.

ثم نجد لكتاب القوافي هذا ذكراً صريحاً آخر ونقلين عنه في القرن التاسع الهجري عند أبي عبدالله محمد بن بكر المخزومي الدماميني المتوفى سنة 827هـ في كتابه «العيون الفاخرة على خبايا الرامزة» حين يقول في مكان من كتابه[4]: «..... فقد أجاز سيبويه في كتاب القوافي له استعمال مثل ذلك بغير ردف لقيام الوزن بالحرف الصحيح مقامه بأحرف المد واللين، وأنشد ....

إلخ». ثم يقول في مكان آخر من الكتاب نفسه[5]: «..... **وقيل: دخله القبض أولاً ثم حذفت نونه وأُسكنت لامه فعوض منهما لأنهما زنة متحركة. قاله سيبويه في كتاب القوافي له..**».

ثم لا نعثر على ذكر للكتاب أو نقل عنه على مدى ثلاثة قرون تالية، إلى أن يجيء عبدالقادر البغدادي المتوفى سنة (1093هـ) فيذكره في كتابه خزانة الأدب قائلاً[6]: «**وقال أبو الفتح بن جني هكذا أنشده أبو الحسن وهو بعيد لأن حكم الحروف المختلفة في الروي أن يتقارب مخرجها كما أنشد سيبويه في كتاب القوافي**».

ونقول: إن الشاهد الشعري الذي عناه أبن جني ولم يذكره البغدادي هو:

ولقد رَحْلتُ العيْسَ ثم زَجْرتُها قُدماً وقلتُ عليك خيرُ معدّ

ولا نعرف ضميمته من الأبيات لنتعرف على حكم حروف الروي المختلفة فيها.

أما البيت الذي ذكره البغدادي ومعه الأبيات المختلفة الروي فهو:

فبيناه يشري رحله قال قائلٌ لمن جمل رخو الملاط نجيب

وقبله الأبيات:

ألا قد أرى إن لم تكن أم مالك بملك يدي إن البقاء قليل

خليلي سيرا واتركا الرحل إنني بمهلكة والعاقبات تدور

رأى من رفيقيه جفاءً وغلظة إذا قام يبتاع القلاص دميم

فقد جمع الشاعر في الروي بين الأحرف المختلفة: الباء واللام والراء والميم. واللافت للنظر أن البيت الأول من هذه الأبيات وهو قول الشاعر:

فبيناه يشري رحله قال قائل لمن جمل رخو الملاط نجيب

قد استشهد به الرضي على أن الواو في الضمير «هو» قد يحذف للضرورة الشعرية كما في البيت. لأن الأصل فبينا هو يشري وقال البغدادي[7]:

قال سيبويه في باب ما يحتمل الشعر: «أعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام إلى أن قال: وليس شيْ يضطرون إليه إلاّ وهُمْ يحاولون به وجهاً. وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك ههنا. والصحيح أن كتاب سيبويه الذي بين أيدينا اليوم قد أخلّ بهذا الشاهد الشعري ولم يذكره في الباب المشار إليه مع أنه لم يخل بالكلام النثري المصاحب له»[8].

غير أن الشاهد الشعري مع ما يصاحبه من التعليق النثري كان موجوداً في نسخة الكتاب التي امتلكها الأعلم الشنتمري عندما وضع كتابه في خدمة شواهد الكتاب الشعرية. مشيراً إلى أن الشاهد ومعه شواهد أخرى هي من أنشاد الأخفش في هذا الباب[9].

ونرجع إلى ما ذكره البغدادي من قبل فنقول:

إن الشاهد الشعري الذي عناه ابن جني كما جاء عند البغدادي هو:

ولقد رحلت العيس ثم زجرتها قدماً وقلت عليك خير معدّ

وهو شاهد لم نعثر له على أثر فيما وصل إلينا من كتاب ابن جني في القوافي باسم « مختصر القوافي». ولعل البغدادي كان قد اطلع على كتاب ابن جني كاملاً غير مختصر كهذا الذي بين أيدينا اليوم.

أما أبو الحسن الذي عناه البغدادي في النص المتقدم فهو أبو الحسن الأخفش وقد عثرنا على الشاهد في كتابه[10] دون أن يذكر اسم سيبويه أو اسم كتابه. ولعل كتاب القوافي للأخفش هو أيضاً مما وصل إلينا ناقصاً وليس كالنسخة التي امتلكها البغدادي في حينه.

ثم اختفى ذكر كتاب القوافي لسيبويه والنقل عنه في مصنفات العلماء حتى القرن الثالث عشر الهجري حين وجدنا الأمام صالح بن محمد الفلاني المتوفى سنة 1218هـ يصرح في كتابه « قطف الثمر »[11] بامتلاك كتاب القوافي لسيبويه وقراءته **على شيخه محمد بن سنة بسلسلة من السند ترتد إلي أبي علي**

الفارسي عن أبن السراج عن أبي العباس المبرد بقراءته عن أبي عمر الجرمي عن أبي بكر المازني اللذين قالا: أخذنا به عن أبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش عن مؤلفه أبي بشر عمرو بن عثمان سيبويه رحمه الله. وهي سلسلة من السند الصحيح لا يرقى لأي من رجالاتها شك ولا ريبة.

كما وجدنا في القرن الثالث عشر الهجري أيضاً ذكراً للكتاب ونقلاً منه عند العلامة محمد الدمنهوري المتوفى سنة (1288هـ) في كتبه «الإرشاد الشافي» وهو «الحاشية الكبرى على متن الكافي في علمي العروض والقوافي للقنائي» حيث يقول[12] : «**وأجاز سيبويه في كتاب القوافي له استعمال مثل ذلك بغير ردف. قال: لقيام الوزن بالحرف الصحيح**»، وأنشد:

ولقد رحلت العيس ثم زجرتها قدماً وقلت عليك خير معد

ولم ينسب الدمنهوري الشاهد لقائل معين، كما لم يذكر معه من الحديث ما يكشف عن غموضه.

وفي الزمن الحاضر، يأتي الأستاذ عبدالسلام هارون فيتناول إشارة البغدادي وغيره عن وجود كتاب آخر لسيبويه باسم «القوافي» وما نقل عنه فيقول[13]: وقد رجعت إلى كتب القوافي التي نشرت حديثاً كمختصر القوافي لابن جني والقوافي لأبي يعلى التنوخي والوافي في العروض والقوافي للتبريزي والعيون الغامزة للدماميني بالإضافة إلى العقد الفريد فلم أجد ذكراً لهذا الكتاب ولكني وجدت أبا يعلى التنوخي في كتاب القوافي عند الكلام عن الردف يقول: وذكر سيبويه «إن فتح ما قبل الواو والياء لا يجوز» ثم يقول معترضاً على سيبويه:» وقد استعملت الشعراء ذلك، وقد ذكر ما ذهب إليه سيبويه أبو بكر الخزاز العروضي . فسيبويه فيما نقل عنه هنا متشدد على حين نراه في المسألة الأولى على كثير من اليسر.

ويضيف هارون قائلاً: على أن ما نقل عنه في المسألة الأولى نجد عكسه في كتابه، فهو يوجب حرف الردف في كل قافية محذوفة أي حذف منها حرف

متحرك وهو القطع الذي سبقت الإشارة إليه، إلا أن يكون رجع عن رأيه في أحد الكتابين إلى الرأي الآخر».

والذي نذهب إليه بعد هذا العرض الذي قدمناه أن كتاب القوافي لسيبويه كان حقيقة لا وهماً وأنه ظل موجوداً بين أيدي العلماء حتى القرن الثالث عشر الهجري يرجعون إليه وينقلون عنه ولكنه اختفى بعد ذلك، وأصبح من تراث العربية المفقود، أو أنه ما زال موجوداً متوارياً في ركن من أركان حفظ المخطوطات العربية في مكان ما من العالم ينتظر الكشف عنه وتقديمه للدارسين.

والذي يؤكد ما نذهب إليه بهذا الشأن عدة معطيات أهمها:

أولاً: أن سيبويه كان مقرباً من الخليل بن أحمد واضع علم العروض في العربية وتلميذاً أثيراً من تلاميذه كما تؤكد هذا مصادر ترجمة الرجلين والتعريف بهما. وكما صح بعد ذلك ، أن سيبويه قد حفظ آراء الخليل بن أحمد في النحو العربي وأودعها كتابه. فليس بعيداً أن يكون قد نقل عنه في العروض والقوافي الشيء الكثير ووضع منهما مؤلفاً كما وضع في النحو كتابه الأشهر.

ثانياً: أن كتاب سيبويه الذي بين أيدينا اليوم لم يكن خالصاً للفكر النحوي واللغوي، ولكنه جمع معهما أيضاً مباحث وموضوعات ذات علاقة وثيقة بعلم العروض والقوافي، كالباب الذي عقده في الجزء الأول من كتابه بعنوان: «هذا باب ما يحتمل من الشعر». والباب الذي وضعه في وجوه القوافي في الإنشاد، ثم الباب الذي وضعه في الإدغام في الحرفين وقد تضمن الحديث عن القوافي المحذوفة والردف وهما من مصطلحات علم العروض والقافية كما لا يخفى.

ثالثاً: أن الذين نقلوا عن كتاب القوافي لسيبويه أو امتلكوا نسخة منه مما ذكرناهم آنفاً ما كان لهم أن يسلّموا بصحة نسبة الكتاب للرجل أو يطمئنوا إليها لو لم يكونوا على ثقة تامة بأن الكتاب له . وما كان هناك حائل يحول دون

التشكيك بصحة هذه النسبة أو عدم العناية بها أو الالتفات إليها ، لأن الرجل الذي نسب إليه الكتاب لم يكن عندهم مغموراً أو ضلة لا يؤبه له ولا يلتفت إلى ما ينسب إليه أو يقوله.

وأخيراً، ليس شرطاً أن يكون كتاب القوافي لسيبويه كتاباً مستقلاً بذاته منفرداً عن كتابه الأم الذي اشتهر به. إذ ربما كان كتاب القوافي هذا جزءاً من الكتاب الأم يشكل مع الأجزاء الأخرى التي خصصت للحديث عن النحو والصرف والبلاغة وغيرها من الموضوعات كتابه الكبير الذي اشتهر به.وكل واحد من هذه الأجزاء يحمل اسماً دالاً على موضوعه ولكنها بمجملها تشكل الكتاب الأم الذي انفرد باسم «الكتاب لسيبويه» فقد جرت عادة العلماء قديماً على تجزئة العمل الكبير من أعمالهم إلى أجزاء عدة يحمل كل واحد منها اسماً خاصاً بموضوعه ولكنها مجتمعة تحمل اسماً واحداً هو الذي يشتهر ويعرفه الناس كما هو حال «العقد الفريد» لابن عبدربه. والمخصص لابن سيده وغيرهما. فكتاب «العقد الفريد» مثلاً يتألف من خمسة وعشرين كتاباً يحمل كل واحد منها اسماً مغايراً للآخر ولكنه موقوف على موضوعه ويجمع هذه الكتب كلها اسم واحد هو « العقد الفريد» وإلى هذا يشير مؤلفه بقوله[14]: «وسميته كتاب العقد الفريد لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة السلك وحسن النظم وجزأته على خمسة وعشرين كتاباً.... وقد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد».

ومثل هذا صنع ابن سيده في المخصص وابن قتيبة الدينوري في عيون الأخبار والإمامان مسلم والبخاري في صحيحيهما. ومثلهم الكثير.

وتأسيساً على ما سبق، فالذي نذهب إليه أن كتاب القوافي لسيبويه هذا ربما كان جزءاً من كتاب سيبويه الكبير ولكنه فقد في حادثة الحريق الذي تحدث القدماء عنها – إن صح الخبر – وكان سبباً في ضياع الكتاب الأم بشكله المتكامل وان الذي بين أيدي الناس منه اليوم ليس إلا بقايا منه جمعها سيبويه

مما لم يتلف ولم تأتِ عليه النار مع ما اختزنته ذاكرته من مادته وموضوعاته فقد نقل عن أبي علي الفارسي قوله[15]: «تزوج سيبويه بالبصرة بجارية عشقته وهو قد بنى عقد كتابه وصنف أوائل أبوابه وهي في جزازات وقطع جلود وخرق وأشقاف بيض فلم يكن يقبل على الجارية ولا يشتغل بها وهي مشغوفة بحبه، ولم يكن يشغله غير النظر والسهر والكتب. فترصدت خروجه إلى السوق في بعض حوائجه وأخذت جذوة نار فطرحتها في الكتب حتى أحرقت، فرجع سيبويه فنظر إلى كتبه وهي هباء فغشي عليه أسفاً ثم أفاق فطلقها ثم ابتنى الكتاب بعد ذلك ثانية وذهب منه علم كثير أخذه على الخليل فيما احترق له».

وإن صح هذا الخبر عن حادثة الحريق فربما كان كتاب القوافي لسيبويه المذكور في بعض المصادر التراثية هو جزء من كتاب الأم الذي خلّفه للناس وليس مؤلفاً مستقلاً بذاته محسوباً من جملة تراثه وآثاره. وتكون الموضوعات الخاصة بالعروض والقوافي التي جاءت في الكتاب الأم الذي بين أيدينا اليوم هي جزءٌ من كتابه في القوافي الذي ذهب جله في الحريق المذكور.

وليس في خبر الحريق هذا ما يدعو إلى التشكيك بصحة وقوعه إلا من جهة أن القصة فيه شبيهة بقصة إحراق كتاب «العين» للخليل بن أحمد التي ذكرها ابن المعتز في طبقات الشعراء[16] ثم نقلها عنه ياقوت الحموي في معجم الأدباء[17]. والذي يدعم ما نذهب إليه بهذا الشأن، أن الذين عاصروا سيبويه أو جاءوا بعده لم يذكر أيٌّ منهم كتاب القوافي هذا بصفته أثراً من آثاره المستقلة التي تركها بعده، إلا ما جاء به الفلاني في القرن الثالث عشر الهجري وهو زمن متأخر جداً عن زمن سيبويه. وقد يكون كتاب القوافي الذي امتلكه الفلاني واحداً من عمل النساخ أو تجار الكتب الذين رأوا في جعل هذا الكتاب من تجزئة الكتاب الأم كتاباً مستقلاً بذاته أكثر فائدة وأجزى ثمناً.

وإلى أن تظهر لنا الحقيقة جلية واضحة ويكشف لنا المحققون والمولعون بالتنقيب عن نوادر التراث. أقول: إلى أن تظهر لنا نسخة من هذا الأثر النفيس

نبقى على اعتقادنا أن كتاب القوافي لسيبويه، وإن كان جزءا أو فصلة من الكتاب الأم هو حقاً لسيبويه وأنه ينضاف إلى مكتبة العروض والقافية في تراثنا الخالد، ويوصف بأنه من بدايات التأليف في علم العروض والقوافي. بعد أن فقدنا ما يقال عن مؤلفات الخليل بن احمد في هذا العلم. والله الموفق.

الهوامش والتعليقات

(1) خزانة الأدب للبغدادي (بولاق) 2/397، (هارون) 5/260.

(2) صرحنا بهذا الرأي في بحثنا الموسوم ب « حول كتاب سيبويه» المنشور في العدد المزدوج (21، 22) من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني الصادر سنة 1983م. ثم أعدنا تأكيده في كتابنا « شذرات من النحو والغة والتراجم» الذي نشرته دار حمادة للنشر والتوزيع في إربد 2006م.

(3) المقاصد الشافية 4/686.

(4) العيون الفاخرة ص 51.

(5) المرجع السابق.

(6) خزانة الأدب (بولاق) 3/397، (هارون) 5/260.

(7) المصدران السابقان.

(8) الكتاب لسيبويه (بولاق) 13-1/8، (هارون) 26-1/32.

(9) انظر: تحصيل عين الذهب للأعلم الشنتمري المطبوع على هامش الكتاب في بولاق سنة 1366هـ، 14-1/15.

(10) القوافي لأبي الحسن الأخفش ص 113.

(11) قطف الثمر ص 191-192.

(12) الحاشية الكبرى للدمنهوري ص 87.

(13) كناشة النوادر (القسم الأول) ص 47-49.

(14) العقد الفريد لابن عبد ربه (المقدمة) ص 5.

(15) الفصوص لصاعد بن الحسن الربعي 2/8-9.

(16) طبقات الشعراء لابن المعتز ص 97-96.

(17) معجم الأدباء لياقوت الحموي 6/223-224.

قائمة المصادر والمراجع

* تحصيل عين الذهب = شرح شواهد سيبويه للأعلم الشنتمري. مطبوع على هامش كتاب سيبويه، بولاق 1316هـ.
* الحاشية الكبرى للدمنهوري على متن الكافي في علمي العروض والقوافي لأبي العباس القنائي، مطبوعات مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة د.ت.
* خزانة الأدب لعبدالقادر البغدادي، نشرة مصورة عن طبعة بولاق بالقاهرة 1299هـ ونشرة ثانية بتحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة 1976م.
* شذرات من النحو واللغة والتراجم للدكتور حنا جميل حداد، منشورات دار حمادة للنشر والتوزيع، إربد 2006م.
* طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، دار المعارف بالقاهرة 1968م.
* العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، منشورات دار الكتب المصرية بالقاهرة 1968–1940م.
* العيون الفاخرة على خبايا الرامزة للدماميني، منشورات المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة 1992م.
* الفصوص لصاعد بن الحسن الربعي البغدادي، تحقيق: الدكتور عبدالوهاب التازي سعود ، منشورات وزارة الثقافة والشؤون الإسلامية بالمغرب 1996م.
* قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات للإمام صالح بن محمد الفلاني، تحقيق: عامر حسن صبري ، منشورات دار الشروق بجدة السعودية 1984م.
* القوافي لأبي الحسن الأخفش . تحقيق: أحمد راتب النفاخ، ط1، دمشق 1974م.
* الكتاب لسيبويه، نشرة مصورة عن طبعة بولاق بالقاهرة 1316هـ، ونشرة ثانية بتحقيق عبدالسلام هارون، ط3 بيروت 1983م.
* كناشة النوادر لعبد السلام هارون (القسم الأول) منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة 1985م.
* مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج (21، 22) المنشور سنة 1983م.
* معجم الأدباء لياقوت الحموي= إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، نشر بعناية مرجليوث، نسخة مصورة عن طبعة هندية بالقاهرة 1923م.
* المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية لأبي أسحق الشاطبي، تحقيق: الدكتور محمد إبراهيم البنا والدكتور عبد المجيد قطامش – منشورات جامعة أم القرى بالسعودية ط،1 سنة 2007م.

* * *